البطل الإسلامي

موسى بن نصير

للدكتور أحمد عبد المنعم البهى

الأستاذ بكلية الشريعة

كان الوالى يتلقى الأنباء المزعجة عن ثورة البربر فى شمال أفريقيا ومقاومتهم الشديدة بقيادة الملكة الكاهنة لجيوش المسلمين فى هذه المناطق .

واستبد القلق بالوالى ورأى أنه لا مناص من اتخاذ خطوة حاسمة لاخضاع هؤلاء الثوار وتوطيد الأمن ، وتشجيع جيوش المسلمين على مواصلة الفتح ونشر الاسلام فى هذه البقاع .

ولم تكن المشكلة أمامه فى قلة المقاتلين ، أو فى نقص عددهم . ولكن المشكلة التى كانت تملك عليه أمره هى اختيار رجل تتوافر فيه السياسة والكياسة ، وحسن التدبير ليعهد اليه بهذه المهمة الكبرى التى تؤرقه وتملك عليه حواسه .

واستعرض الوالى خواصه والمقربين اليه عساه أن يجد فى صفوفهم من تتوافر فيه الشروط التى ينشدها ، والخصال التى يتوخاها . وانتهى به المطاف الى واحد منهم ارتاحت له نفسه واطمأنت اليه سريرته ، فاستدعاه الى مجلسه وكاشفه بالمهمة التى اختاره للقيام بها .

وكما توقع الوالى لم يتردد صاحبنا فى قبولها بل قام يشكر الوالى على هذه الثقة ويسأل الله أن يحقق أمل الوالى فيه ، وأن يكون عند حسن الظن به .

وعندما أزمع السفر ودعه الوالى وقال له فيما قال من كلمات التشجيع : « انى أريد أن يرفع الله بك شأن الاسلام والمسلمين فى المواطن التى أوفدك اليها ، وأن تمضى على فتنة البربر هناك » . وافترقا بعد طول وداع ..

فمن يكون هذا الوالى .. ومن يكون هذا الرجل ..؟

أما الوالى فقد كان عبد العزيز بن مروان والى مصر .

وأما الشخص الذى اختاره فقد كان موسى بن نصير .

وانتهى المسير بموسى الى مقر عمله . وكان يقدر قبل الرحيل أن فتنة البربر هناك أقوى مما تصورها بمراحل ، وانهم مستميتون فى الدفاع ، وأنهم كما وصفهم حسان بن نعمان القائد السابق على موسى بن نصير فى كتاب له الى الخليفة عبد الملك بن مروان : « ان أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية » .

لم يكن يتصور فداحة هذا الأمر ، ومع ذلك فقد عول على أن يقضى على هذه الفتنة وأن يستعمل دهاءه وسياسته الى جانب قوته وجيوشه .

وعلى هذا النحو ، وعلى هذا النهج أخذ موسى بن نصير يخضع الثائرين ويقضى على فتنتهم ووجد بصائب رأيه أن هنـــاك حصنا حصينا للثوار فى ناحية زغوان والقرى المجاورة لها وهى تبعد عن القيروان بنحو عشرين أو ثلاثين كيلو مترا . فصمم على أن يهاجمهم هجوما خاطفا فى هذا المكان - مكان تجمعاتهم - وأن يضع يده على زعمائهم وقادتهم .

وقد نجحت هذه الخطة أيما نجاح واستطاع موسى بن نصير أن يوجه الضربة الأولى فى القضاء على الثوار وتشتيت جموعهم . ثم أخذ بعد ذلك يهاجم مراكزهم مركزا مركزا والنصر حليفه فى كل حملة يقوم بهـا حتى استطاع أن يوطىء للاسلام فى هـذه الأماكن وأن يقضى على الثورة بين قبائل البربر فى هذه البلاد .

أمل جـــديد

وخطر لموسى بعد أن نجح فى مهمته ، وقام بتنفيذ الخطة التى وضعها للقضاء على ثورة البربر خير قيام .. خطر لموسى خاطر جديد فقد كان فى احدى ليالى الصيف المقمرة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط - وكان يسمى فى ذلك الوقت بحر الروم - أقول خطر لموسى وهو ســـاهم فى جلسته يتأمل فى ملكوت الله .. آن يكتشف ما وراء هـــذا البحر ، وأن يخوضه برجاله وبمن انضم اليهم من قبائل البربر بعد اسلامهم .. عسى ان

يفتح عليهم آفاقا جديدة .. وقام من فوره يعمل على تنفيذ هـذا الخاطر ، فأخذ يرسل الحملات الاستكشافية الواحدة تلو الأخرى لجمع المعلومات عن البلاد الواقعة خلف البحر ، وطبيعة أرضها ، وحياة أهلها ومدى قبولهم أو تزمتهم لوسائل الحكم هناك والخضوع للحاكمين .

وكانت المعلومات كلها مشجعة فقد عرفوا أن أرض الأندلس لا تبعد عن الشاطىء الافريقى كثيرا ، كما علم أن أهل الجنـوب ساخطون على سياسة السلطان « لذريق » وكذلك علم أيضا أن خيرات هذه البـلاد ينعم بهـا الحاكمون دون المحكومين ، وأنهم لا يسلـكون لأنفسهم الا السمع والطاعة لرغبات هؤلاء الحاكمين ، والى الاصاخة لكل ما يؤمرون به .

وانتهز موسى الفرصة المناسـبة وجهز فى صيف عام سنة ٩٢ هجرية جيشا مكونا من سبعة آلاف مقاتل واختار لهـذا الجيش قائدا موهوبا هو مولاه « طارق بن زياد » .

واتجه طارق بسفنه وجيوشه الى شاطىء الأندلس وألقى رحاله هناك ولكنه قبل أن يدخل اليهـا علم أن « لذريق » يقوم بجمع جيوش جـرارة لمقاومة العرب فأرسل الى موسى يستنجده بجيش آخر فأرسل اليه خمسة آلاف مقاتل أخرى ، وصعد طارق بجيوشه الى أرض الأندلس وبعد أن سوى صفوفهم للقتال أحرق سفنه وخطب فى جيشه خطبته المشهورة التى يقول فيها : « العدو أمامكم والبحر وراءكم وليس لكم والله الا الصـدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهب ريحكم ، وتقوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعـوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هـذا الطاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهـاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت ، وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم عـلى خطة أرخص متاع فيها النفوس . ولم أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم ان صبرتم على

الأشق قليلا استمتعتم بالأرفة الأند طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفى من حظي » .

ودارت المعركة وانتصر المسلمون انتصارا مؤزرا ، وفرحوا فرحتين الفرحة الأولى بانهزام ميمنة الجيش الاسباني أمامهم . والفرحة الثانية فرحة عيد الفطر الذي جاء عليهم وهم في عنف المعركة وشدة القتال .

وظل طارق يقود جيوش المسلمين من نصر الى نصر حتى تم له فتح الأندلس ، ولم يمض عام كامل حتى كان معظم بلادها في حوزة المسلمين.

وانتقل موسى بقوات أخرى الى نواحي مختلفة في الاندلس فأخضعها في الوقت الذي كان فيه طارق يتوغل في شمال الأندلس الشرقي، وواصل الرجلان العظيمان فتوحاتهما حتى أزعجا فرنسا بوصولهما الى جبال البرانس التي تفصل بينها وبين اسبانيا . ولقد تهيب الفرنسيون هذا الفتح ، وخشوا أن تمتد يده الى أرضهم واجتمع كبارهم الى ملكهم «شارل أوفارله» كما كان يسميه العرب وقالوا له في جزع لقد كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا الينا من مغربها .

ولقد كان موسى بن نصير بعد أن تم له فتح الأندلس .. يريد أن يواصل فتوحاته في أوربا فيمضي الى فرنسا وما وراءها من بلاد أخرى على البحر الأبيض المتوسط حتى يصل الى القسطنطينية ومنها يعود الى آسيا فشبه جزيرة العرب فالشام حيث مقر الخلافة وبذا يكون المسلمون قد استولوا على حوض البحر الأبيض بأكمله وحاصروه من جميع نواحيه وامتلكوا شواطىء القارات التي تقع عليه وهي آسيا وأفريقيا وأوربا .

كان موسى يريد هذا وكان طارق يسر بذلك ، لولا أن الخليفة الوليد بن عبد الملك بعث الى موسى رسولا بعد آخر يطلب اليه العودة الى الشام وان لا يتقدم في فتوحاته بعد ذلك فاستجاب الرجل لهذه الرغبة وما كان له أن يخالف أمر المؤمنين وهو أحد ولاته وعماله فعاد الى دمشق . عاد اليها بما حمل من النفائس والغنائم من هذه البلاد التي بهرت عيون الناظرين ، والتي قدرها البعض بأنها أضعاف أضعاف ما غنمه المسلمون في فتحهم بلاد كسرى في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

هذه بعض جوانب العظمة فى حيـــاة موسى بن نصير بطل الأندلس وفاتحه على المسلمين ، وهى صورة مليئـــة بالثقة والصبر والجلد والكفاح والايمان ، والثقة بالله والاعتزاز بدينه والاخلاص للاسلام .

لقد كان فتح العرب للأندلس عاملا هاما من عوامل النهضة الأوربية الحديثة وان أنكره بعض المؤرخين من الغربيين تعصبا واستكبارا وان كان الثابت ان أوربا كانت قبل فتح الأندلس تهيم فى ضلالة من الجهل .

واليها تسربت الحضارة العربية عن طريق المؤلفات والاتصال الشخصى بين المسلمين وغيرهم من المتاخمين لحدودهم من أهل أوربا .

هذه حقيقة يعترف بها بعض المنصفين من كتاب الغرب . ولم يروا فى الاعتراف بها نقصا يشين العقل الأوربى بل وجدوا فى الاشادة بها فخرا وتقديرا للذين كان لهم الفضل فى ايقـاظ وعيهم والنهوض بمســـتواهم الفكرى .

واليوم وان لم يبق لنا من هذه الأمجاد الا ذكراها فواجبنا على الأقل أن نرعاها وأن نمجد أبطالنا الذين صنعوا لنا هذه المفاخر ، وشيدوا لنـا هذه الأمجـــاد . ولست أعنى بذلك أن نرضى من الغنيمة بالاياب أو أن نعيش بين مجرد هذه الذكريات ولكنى أريد من وراء هذا أن يأخذ الناس من ماضينا المجيد عبرة ، وأملا لمستقبلنا الجديد حتى نترسم خطى السابقين من أبطالنا المكافحين الذين لم يكن لهم أمل فى الحيـــاة الا رفعة الاسلام والسمو به دون نظر لأشخاصهم الزائلة .

أحمد عبد المنعم البهى